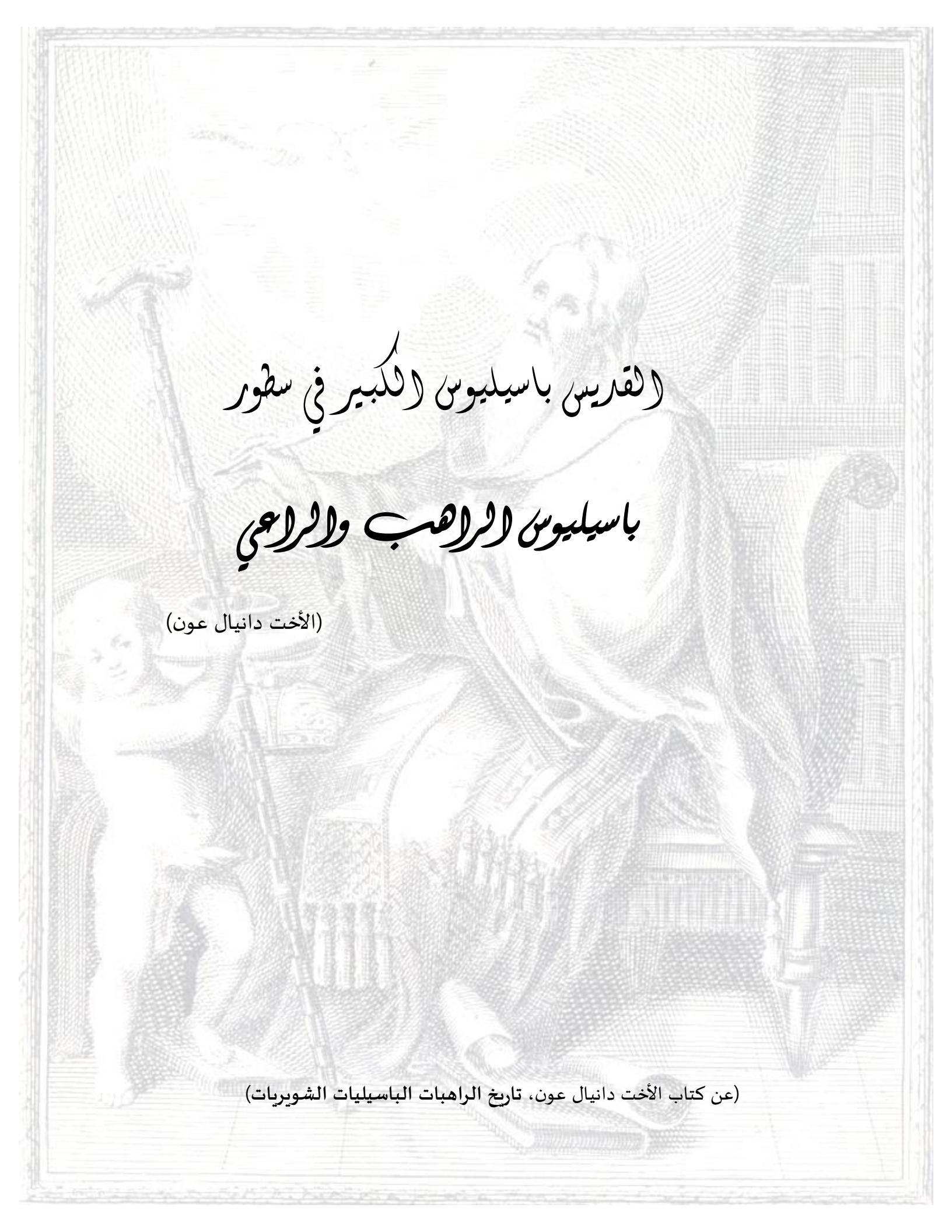

القديس باسيليوس الكبير في سطور

باسيليوس الراهب والراعي

(الأخت دانيال عون)

(عن كتاب الأخت دانيال عون، **تاريخ الراهبات الباسيليات الشويريات**)

كانت حياة القديس باسيليوس العمليَّة في المجتمع، تكملة لحياته الفكرية. وكما "ذاع منطِقه في كلِّ الأرض وإلى أقاصي المسكونة كلامه" (مز ٥/١٨)، كذلك أعماله العظيمة انتشرت في مجتمعه لإعلاءِ شأن المسيحيين أبناء رعيَّته. لقد كان القدِّيس باسيليوس منارةً على جبلٍ، به صلح الفاسد واستعان المحتاج وتعزَّى المحزون ؛ فكان كلامه بلسمًا للروح، وتوجيهاته الروحيَّة والأخلاقيَّة طيبًا يعطِّر النفوس الصَّالحة. ونجد هنا الميدان الأكثر تناسبًا ووضوحًا لإظهار الناحية الأخلاقيَّة الاجتماعيَّة التي علينا أن نعترف بها للقدِّيس باسيليوس. وأوَّل ما يمكننا الكلام عنه في هذا المجال تنظيمه الحياة الرهبانيَّة.

١. تنظيم الحياة الرهبانية

كانت الحياة الزهديَّة قبل القدِّيس باسيليوس تتفرَّع إلى حياةٍ نسكيَّةٍ فرديَّةٍ ينقطِعُ فيها الناسك إلى الصَّلاةِ والتأمُّل، وإلى حياةٍ رهبانيَّةٍ جماعيَّةٍ، وفيها يعيش الرهبان معًا تحت إشرافِ رئيسٍ مسؤول. أُعجِب القدِّيس باسيليوس بالحياتيْن لكنَّه آثرَ الحياة الرهبانيَّة الجماعيَّة على الحياة النسكيَّة الفرديَّة، لأنَّ هذه الحياة النسكيَّة بنظره تستهدف مصلحة الفرد، لا سبيل معها لممارسة الفضائل، ولا سيَّما المحبَّة والتواضع والصبر والخدمة. أمَّا الحياة الجماعيَّة، فتُفسِحُ المجالَ رحبًا لممارسة تلكَ الفضائِل. وهي من ثمَّ تتماشى مع روح العهديْن القديم والجديد، إذ جاء على لسان النبيَ داوود في مزاميره : "ما أطيبَ وما ألذَّ أن يسكنَ الإخوةُ معًا".

لكنَّ الحياة الرهبانيَّة كما رآها القدِّيس باسيليوس عند الرُّهبان الذين عرفهم في مصر وفلسطين وسوريا، كانت حياةَ عملٍ ونشاط يطغى مظهرها الخارجي على حياة الصَّلاة والتأمُّل. فكانَ لا بدَّ من الإصلاح لأنَّ الراهب قبل كلِّ شيءٍ هو رجلُ الله ورجلُ الصَّلاة. لذلكَ سنَّ لفرعِ الرُّهبانِ الذي أنشأهُ في كبَّادوقية، أنظمةً وقواعدَ تجمع بينَ الصَّلاة والعمل وتعطي كلاً منها حقَّه. وقد اعتُبر القدِّيس باسيليوس من أوائب مشترعي الحياة الرهبانيَّة، بما أدخله من تنظيماتٍ لا تزال تستوحي منها الرهبانيات الروميَّة الملكيَّة في الشرقِ مبادئها.

كان همُّ القدِّيس باسيليوس محاولة التوفيق بين الحياة النسكيَّة التي اشتهرت قبله مع القدِّيسيْن أنطونيوس وباخوميوس، والحياة الديريَّة التي تسعى إلى تمجيد الله بأعمال الرسالة. وقد أراد أن يجمع الرهبان في أديرةٍ تحتَ سلطةِ رئيسٍ واحدٍ، وحاول لأن يجعلَ من ساكني الدير أسرةً واحِدةً روحيَّةٍ تحت إدارةِ رئيسٍ مسؤولٍ، يشرح فيها جوهرُ الحياة المسيحيَّة المتمثِّلة بمحبَّةِ الله والقريب.

٢. الصَّلاة الطَّقسيَّة

إنَّ بنية العديد من الصَّلوات الطقسيَّة البيزنطيَّة ترجع إلى القدِّيس باسيليوس، فهو أعاد صياغة الصَّلوات التي كان الرهبان في مصر وسوريا وفلسطين يتلونها يوميًّا، ونسَّقها وقسَّمها إلى سبع مراحل : صلاة نصف اللَّيل، السَّحَر، السَّاعات الثالثة والسَّدسة والتاسعة، ثمَّ صلاة الغروب وصلاة النوم. والإثر الكبير الذي تركه لنا في هذا الباب والذي تطبّقه الرُّهبانيَّات الباسيليَّة في صلاتها، فهو الليتورجيَّة التي تحمل اسمه. فالقديس باسيليوس لم يخلق ليتورجيَّة خلقًا، بل استوحى الكثير من الطقس الإنطاكي.

٣. الواعظ والمربّي

إهتمَّ القدِّيس باسيليوس بتعليم شعبِهِ، مستعينًا لتحقيق ذلك بثقافته الشاملة التي ارتكزت على الكتاب المقدَّس. فأربع وعشرون عظةً من عِظاته تتبع النصوص الواردة في الأناجيل. لم يترك القدِّيس باسيليوس قضيَّةً روحيَّةً أو دنيويَّةً إلاَّ وتكلَّم عنها. كثُرَ حديثه عن المزامير

والممارسات الطقسيَّة وشرح المواضيع الخاصَّة بالخلق : "لا يخفى عليَّ، يقول باسيليوس في موعظته الثالثة عن الخلق، أنَّه يوجد بينكم هنا الآن الكثير من الصنَّاع وذوي الحِرف والموظَّفين ممَّن يربحونَ رزقهم بكلِّ شرفٍ واستقامة".

واهتمَّ أيضًا بإرشاد مستمعيهِ إلى العمل الإلهي وجمالِ خلقِهِ والانتقال بهم من المنظورات إلى التأمُّل في غير المنظورات، وتمجيد خالق السَّماوات والأرض : "ليكنْ بهاءُ هذه الأشياء المنظورة مرآةً لنا لفهم غير المنظور الذي هو فوقَ كلِّ جمالٍ أرضي. ولترفعنا روعةُ هذه المحسوسات المحدودة إلى إدراك المبادئ السَّمية عمَّن هو سرمدي غير محدود، ذي جبروت يتخطَّى مدارك عقولنا وفهمنا". كما اهتمَّ أيضًا في شرح الكتب المقدَّسة مستقيًا منها أمثالاً وأقوالاً تساعد على تهذيب الشَّخصيَّة الاجتماعيَّة وصقلها طبقًا للمقاييس المسيحيَّة المستوحاة من الإنجيل.

إعتبر القدِّيس باسيليوس الإنسان عالمًا صغيرًا (Microcosmos) في ذاته. فهو جزءٌ من عالمٍ أكثر شمولاً واتِّساعًا هو المجتمع الذي يعيش فيه ويتفاعل مع أفرادِه، إليهِ يوجِّهُ كلماته لتأتي أكثر تفاعلاً وأشدّ وقعًا في النفوس. ثمَّ يجتهد في سبر أغوار الشَّخصيَّة البشريَّة، آخذًا بعينِ الاعتبار مقوِّماتها الطبيعيَّة والسيكولوجيَّة التي تقرِّر حالها وواقعها الاجتماعيَّيْن. وفي هذا الباب، يهتمُّ القدِّيس باسيليوس بمحاربة الشرِّ في الإنسان والمجتمع ويحاول النَّفاذ إلى أعماقه ويجتهد في إبراز العناصر النفسيَّة التي تمتُّ بصِلة إلى الحالة المعيَّنة. هدفه من ذلك تخطِّي الاعتبارات الظاهِريَّة للاتِّصال بالإنسان الباطني وإدراك أبعاده. والمقطع التالي من موعظته عن الانتباه للذَّات ينمُّ عن قدرةٍ تحليليَّةٍ، فيقولُ في كلامِهِ عن الشَّباب : "إنَّ خفَّةَ فكرِهم لتوهِمهم أنَّهم يملكون ما يتمنُّون، في راحتهم وفي سكون ليلهم، يتوهَّمون في تصوُّرهم كلَّ شيء، فيُقيمون لأنفسهم بيوتًا جميلةً رحبةً يملأونها بشتَّى الخيرات ووسائل التنعُّمات...". وهكذا عرف القدِّيس باسيليوس حالات الإنسان النفسيَّة، ونفذ إلى أعماقِ قلبه البشري. تلك المعرفة جعلت منه مصوِّرًا بارِعًا يرسم خطوطًا تنطبق حتَّى على مجتمعِنا الحاضر.

إستطاع القدِّيس باسيليوس أن ينتقل من الفرديَّة إلى الجماعيَّة، فكانت دراسته في "علم النفس الفردي" أساسًا وافيًا لعلم النفس الاجتماعي. وإذا كان من أهداف باسيليوس في مواعظه صقل الشخصيَّة الأدبية وإقامة بنية إجتماعيَّة متكاملة يسودها النظام، فإنَّ تحقيق مثل تلك الغاية لا يتمّ إلاَّ على أساسٍ تربوي. لذلك اهتمَّ القدِّيس باسيليوس بالتربية الروحية التي تتميَّز بدعوةٍ إلى رفض الخطيئة وإلى التحلِّي بالفضائل التي يعلِّمنا إيَّاها المسيح فيقول : "يجب أن نموت عن الخطيئة ونُصلب مع المسيح. إنَّ من يجاهد ينتصر، وبالأتعاب نحصل على المجد، وأقول لكم، يجب علينا أن نجتاز مضايق كثيرة لندخل ملكوت السماوات (أع ١٤/٢٢) ولكن بعد هذه المحَن تنتظرنا الطوبى السَّماويَّة، بينما لا تُفضي الخطيئة إلاَّ إلى التعاسة وعذاب جهنَّم".

مواعظ القدِّيس باسيليوس هي أساسٌ لتوجيه الحياة ولرسم خطوط التربية الروحيَّة. والعلم يساعد على التربية وهو ضروري ولكن يجب التمييز فيه. ويعلن القديس باسيليوس في إحدى مواعظه عن الغاية التي يتوخَّاها من العلم فيقول : "في ظنِّي أنَّ كلَّ إنسانٍ عاقلٍ يفكِّر بأنَّ العلم هو الأمر الأساسي في كلِّ ما هو حسنٌ وفي متناول عقولنا. علينا أن نحتفظ بما يمكنه أن يساعدنا على التأمُّل في الحق، متجنِّبين كلَّ ما يؤدِّي إلى الشَّر...". فكان من الطبيعي أن يعمل أبناؤه برأيه، فيُقبلوا على المعارف والعلوم. ويستدرك القديس باسيليوس الخطر الذي قد يتعرَّضون إليه بنهلهم منها بلا تمييز، فيحذِّر منه خاصَّةً وأنَّ المعرفة تدخل في نطاق التربية : "ولذا يهمُّنا جدًّا، يقول باسيليوس، ألاَّ نكبَّ بجهلٍ على العلوم وإنَّما أن نعرف ما الأفيَد منها... وخوفًا من أن نتعلَّق بها وننسى علم الله، منغمسين في أبحاثٍ باطلة، من الضروري أن نستوحي الوضوح في التربية

بطريقةٍ نختار فيها العلم المفيد ونجتنب كلَّ ما هو ضررٌ وشؤم".

بمثلِ تلك النصائح يتوجَّه القدِّيس باسيليوس إلى الشَّباب لأنَّ سنَّ الشَّباب يتيح العلم والنَّهل من المعارف. لذلك أراد أن يرشد أولئك الأشخاص وينير لهم دروب الحياة في مختلف الميادين، خاصَّةً الفكريَّة منها، منوِّهًا بأنَّ التربية الثقافيَّة يجب أن تعتمد على المبادئ الإلهيَّة التي علَّمنا إيَّاها المسيح، وإن دعا ذلك إلى قطع الرِّباط مع المعلِّمين الدنيويّين، واحتقار ما يعتبره المجتمع العام أرفع وأكرم : "أيُّها الشباب، لا تجعلوا معلِّميكم الأرضيّين يتحكَّمون بعقولكم. خذوا منهم ما هو لمنفعتِكم واطرحوا جانبًا ما يضرُّكم. أيُّها الشباب، إنَّ الحياة الحاضرة لا قيمة لها... رجاؤنا أبعد بكثير ممَّا نتصوَّر، وجهودنا تصبو إلى الحياة الأخرى. إنَّ ما ينفعنا في هذه الحياة هو ما يجب أن نحبُّه ونبتغيه بكلِّ قوانا، وما لا يخدم هذه الغاية، هو غير ذي أهميَّة وجدير بالاحتقار".

على هذا الأساس، تتسلسل مبادئ القديس باسيليوس التربوية ومنها كيفيَّة قراءة الكتب غير الدينيَّة، وهي مدخل لفهم معاني الكتب المقدَّسة. لكن التربية تتناول ميادين الحياة الاجتماعيَّة كلِّها. وهي تهتمُّ ليس فقط بتوجيه الشباب وإنَّما بتنشئة الأولاد معتمدةً في ذلك على التعليم، دون اللُّجوء إلى القسوة والشِّدَّة في تهذيب الفتيان. فالقصاص هو للإفادة كما أنَّ الجوائز هي للتَّشجيع وخلق أجواء من الانتباه والفرح.

على تلك المعطيات، تركَّز العمل الوعظي والتربوي للقدِّيس باسيليوس. فقبل أن تحتلَّ الكنيسة مركزها المرموق في المجتمع، كان القدِّيس باسيليوس قد أوجد الحلَّ لمشكلة التربية المسيحيَّة، دون أن يهدر من إرث البشريَّة، محافِظًا على أولويَّة الحقائق الأزليَّة. وهو من الأوائل الذين رسموا صورة عمليَّة وواقعيَّة للمدرسة المسيحيَّة.

٤. الراعي الغيور

قرنَ القدِّيس باسيلوس القول بالعمل، والتزم بكلِّ ما علَّمه ووعظ به. ألم يدعُ إلى نبذ خيرات الدنيا والتعلُّق بحبال الآخرة، إلى ترك الغنى المادِّي وارتجاء الغنى السَّماوي؟ باع كلَّ ما يملك ووزَّعَ ثمنه على الفقراء والمحتاجين، يقينًا منه "أنَّ غناه يقوم على أن لا يملك شيئًا مع الصَّليب الذي كان حياته الوحيدة وأثمن من خيرات كثيرة". ألم يكلِّمنا عن الفقر والزُّهد الكامل بالدنيا ومباهِجها وأباطيلها؟ يذكر غريغوريوس ذلك في رثائه له : "إنَّه لم يملك إلاَّ رداءًا واحِدًا وعباءةً واحدة، وفي البرِّيَّة كان يفترش الأرض، يحرم نفسه من أمورٍ كثيرةٍ، كان طعامه الخبز والملح... وفي ذلك كلِّه كان يجد زهرَه ومجده". وفي القول دليلٌ يبيّن على الميزةِ الخاصَّة التي تميَّزت بها حياة القدِّيس باسيليوس بين أبناءِ رعيَّته، فقد كان قريبًا منهم، دائم الاطِّلاع على حياتهم الدينيَّة والاجتماعيَّة. فانتهج معهم حياة البساطة والانفتاح، حياة المشاركة والتعاضد، وكان الكاهن الغيور السَّاهر على رعيَّته.

إختلط القدِّيس باسيليوس بطبقات الشَّعب وتعرَّف على الحياة الاجتماعيَّة لكلِّ عائلةٍ وجماعةٍ. كان شجاعًا لا يهاب الحكَّام، يوبِّخ حيث ينبغي التوبيخ ويسدي نصائحه كلَّما وجد إلى النُّصح حاجة. وكثيرًا ما اعترضته الصُّعوبات، فكان يذلِّلها بحكمةٍ، ملتمسًا الخير بوحيٍ من ضميره.

وجد الشعب في القدِّيس باسيليوس سندًا فلجأ إليه ليتوسَّط عند الامبراطور لحلِّ مشاكله. وهو سعى جهده لإعفاء الفقراء من الضَّرائب. بذلك كتب القدِّيس باسيليوس إلى كبير موظَّفي الجباية قائلاً : "إعلم أنَّ هذا الكاهن الذي يحمل إليكَ الرِّسالة جديرٌ بثقةِ حكمتكَ لأنَّه يخاف الله. وخذْ على عاتقكَ قضيَّة الفقراء فأمِّنْ لهم العون على قدر استطاعتكَ، كما زُر المأوى الذي تحت إدارته، وأعفى كلِّيًّا من الضَّرائب".

واهتمَّ القدِّيس باسيليوس أيضًا بكهنته ورهبانه الذين تقع عليهم أيضًا واجبات دفع الضَّرائب، فكتب إلى مراقب الجباية بهذا الصَّدد قائلاً : "إذ أفكِّر أنَّه يتحتَّم عليَّ الاهتمام بهم (أي بالرُّهبان) قدر استطاعتي، إنّي أكتب إلى شخصكم الكريم أن تعفوا أولئك الذين تخلّوا عن الحياة وأماتوا أجسادهم... فهم يعيشون طبقًا لنذورهم، وبالتالي لا يملكون شيئًا لاستعمالهم الشَّخصيّ. أموالهم وخيراتهم تركوها لجماعة المعوَزين، وأجسادهم أذابوها بالصَّوم والصَّلاة". هكذا كانت علاقة القدِّيس باسيليوس وطيدةً مع الحكَّام ومع أبناءِ رعيَّته على مختلف طبقاتهم، وبذلك نشر الصِّدق والعدالة والمحبَّة بين المؤمنين واهتمَّ بكلِّ فردٍ من أفراد كنيسته.

٥. "الباسيلياد" مدينة المحبَّة

لم يكتفِ القدِّيس باسيليوس بأعمالٍ خيريَّةٍ أوجبتها ظروف الحياة، وبرسائل مختلفة تحمل عواطف التَّعزية، بل أيضًا أن يرفع صرح المحبَّة ويعمِّر هيكلها، فكان عمله العمراني تحقيقًا لأهدافه الاجتماعيَّة. فبنى مدينة المحبَّة في وسط أبرشيَّته بالقرب من القيصريَّ، الأمر الذي جعله يقرن العلم بالعمل. هذه المدينة هي مؤسَّسة إجتماعيَّة كبرى، ضمَّت إلى جانب الدَّير مستشفًى ومدرسةً ومضافةً ومصنعًا. وفتحت أبوابها أمام كلَّ صاحبِ حاجةٍ، يؤمُّها المرضى والمسافرون والمشرَّدون، ويلقُون فيها كلَّ خدمةٍ وعناية. ودُعيت "باسيلياد" على إسم القدِّيس باسيليوس. هدفه من تأسيسها كان إسداء الخدمات المتعدِّدة.

وعندما اكتمل بناؤها كما يروي القدِّيس غريغوريوس النزينزي، هجر الناس مدينة قيصريَّة واستوطنوا بقرب "الباسيلياد" فأصبحت محورَ الحركة والعمل والحياة، فيها نُظِّمت الأعمال الخيريَّة وعُمِّمت الخدمة، فلم تعد مجرَّد كلامٍ بل أصبحت مؤسَّسةً تلبِّي الحاجات بصورةٍ دائمةٍ، وتساعد على رفعِ مستوى الحياة. فكان القدِّيس باسيليوس من المُصلِحين، بل من أنصار المحبَّة الحقيقيِّين، عملاً بقول المسيح : "من علَّم وعمِل، فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السَّماوات" (متى ١٩/٥). القدِّيس باسيليوس كان في التَّعليم رائدًا، وفي العمل مؤسِّسًا سبَّاقًا.